تجليات الحس الاغترابي في رواية بحر الصمت لياسمينة صالح.

الأستاذة: هنية مشقوق
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

مقدمة:

نحن نعيش في عصر يتميز بالتغيرات السياسية، والاقتصادية والثقافية، التي أدت إلى تعقد أساليب الحياة، والتوافق معها غدا أمرًا صعبًا، فكان هذا التغيير من العلامات التي تميز بها العصر الحديث، مما أدى إلى بروز ظواهر عديدة انعكست سلبا على الإنسان، وليس الإنسان فحسب، بل كان لها تأثير بالغ على الأدب، باعتباره نشاط إنساني تفاعلي، يهدف إلى عرض وفحص هذه الظواهر بطريقة فنية أدبية، وتتمثل هذه الظاهرة في" الاغتراب" الذي ظهر في الكثير من الأعمال العالمية والعربية الشعرية منها والنثرية، وارتأينا قبْل أن نتفحص هذه الظاهرة وتجلياتها الجمالية والفنية في رواية" بحر الصمت" لياسمينة صالح، أن نستهل دراستنا هذه بتمهيد نظري، حول إشكالية المصطلح المفهومي " للاغتراب"، وذلك قصد الوقوف على المفاهيم الكثيرة التي لحقت بهذا المصطلح، قبل الخوض في التحليل: أي ما الذي يعنيه الاغتراب؟.

مفهوم الاغتراب:

إن الاغتراب ظاهرة قديمة قدم الإنسان، فمنذ وجود الإنسان والمشاكل، والأزمات تصاحبه على مختلف مناحي الحياة" ولعل أول مظهر من مظاهر الاغتراب الذي عرفته البشرية يعود إلى تلك اللحظة المتعالية التي غربت فيها الجنة بنعيمها السرمدي عن آدم عليه السلام، ونزل الأرض مغتربا عنها وعن المعية الإلهية التي كان يحظى بها قبل عصيان أمر ربّهْ؛ فتلك هي بحق وصدق أولى مشاعر الاغتراب[1]."

إذا فظاهرة الاغتراب ليست حديثة؛ وإنما هي ظاهرة عرفها الإنسان منذ الأزل في مختلف المجتمعات وعبر الأزمنة لكنها لم تأخذ أبعادها المنهجية إلا مع الدراسات النفسية والفلسفية الحديثة في الأربعينيات والخمسينات من القرن العشرين[2]؛ ويعود فضل انتشارها إلى" ماركيوز" و" فروم" الذي يرى« أن القضايا الإنسانية المختلفة كالحب،

والحرية والقلق، والاغتراب... لا يمكن أن تنفصل عن البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للمجتمع لذلك فإن تحقيق الحرية الايجابية، وقهر الاغتراب مرهون لديه بتحقيق التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المناسبة التي تسمح للإنسان أن يعبر عنه بشكل تلقائي حر[3]»، هذا يعني أن الاغتراب ظاهرة نفسية وفكرية، وذاتية لها أسبابها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية التي تسهم في استفحالها؛ مما يجعل العلاقة بين الذات، والآخر مبنية أساسا على التنافر، والاستلاب، والعزلة، والتفرد، وقهره مرهون بإصلاح هذه الأسباب لصالح الذات والآخر وبعبارة أخرى« فإن الإنسان في العصر الحديث أصبح منفصلاً انفصالاً حادًا لم يسبق له مثيل، سواء عن الطبيعة، أو المجتمع، أو الدولة، وحتى نفسه وأفعاله، ولم يعد قادرًا على إقامة الجسور التي تصل بينه، وبين هذا الآخر المختلف المظاهر، والمتعدد الأسماء، وأصبح عاجزًا عن تحقيق ذاته على نحو شرعي أصيل[4].»

تبعًا لذلك فقد لحق بالاغتراب استخدامات عديدة، صورت حقيقته المرة على الذات الضائعة، التي أصبحت تستشعر القلق والخوف من فقدان الأمن والأمان، والفرح والتوافق حتى غدت مبحرة في عالم التوتر والقلق النفسي؛ فجميع هذه التجليات لمظهر واحد" الاغتراب" الذي عرف الكثير من المفاهيم التي لم نعثر لها على اتفاق، فمنها العزلة، الانفصال، الاكتئاب، اللامبالاة، فقدان الحرية، هذا ما أكده العديد من الفلاسفة أمثال" هيجل" حيث تشير الدراسات أنه(أبو الاغتراب)، فهو أول من استخدم في فلسفته مصطلح الاغتراب على نحو منهجي مقصود، وذلك في مجمل مؤلفاته خاصة كتابه الذي يعرف" بظاهريات الروح والعقل"، وقد تحول الاغتراب على يده من مجرد فكرة أو كلمة إلى مصطلح فني ومفهوم دقيق" يستخدم عن قصد.[5]"

كما تشير الدراسات إلى أن هيجل قد استخدم مصطلح" الاغتراب" استخدامًا مزدوجًا، الأول سلبي بمعنى الانفصال، وينشأ نتيجة ظروف سلبية، وصراعات تعيق الفرد عن الاندماج في البنية الاجتماعية؛ فتصبح الذات منقسمة منفصلة عن ذاتها؛ أما الثاني ايجابي بمعنى التسليم فهو الذي يؤدي حسب" هيجل" إلى قهر الاغتراب الأول، عن طريق توقف الفرد عن استقلالية ذاته وتأكيدها وإعادة اندماجه وتوحده مع ذاته الطبيعة، وتأكيدها لصالح البنية الاجتماعية[6]

ولن نستعرض هنا تاريخ نشأة الاغتراب كمصطلح علمي، ومفهوم واسع المجالات؛ ويكفي أننا أشرنا إلى أن هذا المصطلح عرف حضوره الفعلي والممنهج على " يد هيجل" ومن أتى بعده كماركس، وديكارت وغيرهم، ولنا أن نقر أنه قيل الكثير حول هذا المصطلح باعتباره شعار العصر، ومأزق الإنسان المعاصر، حيث عده المعلقون الاجتماعيون واحدًا من أضخم مشكلات العصر، وقد أرجعوا أسباب الاغتراب إلى الصناعة، والحروب، والأزمات الثقافية وغير ذلك[7]."

وقد انعكست هذه الظاهرة على الأدب، فأصبح الاغتراب موضوعًا بارزًا فيه، شأنه شأن مختلف أوجه النشاطات الإنسانية، ذلك أن جميع جوانب الحياة تناقش من خلال موضوع الاغتراب، فلا ريب أن تتجسد هذه الظاهرة في الأعمال الأدبية، لأن طبيعة الحياة التي يحياها الأديب تؤثر في أعماله التي ينتجها، باعتبارها نقلا للتحولات المحيطة به في بنيته النفسية والفكرية والاجتماعية... الخ؛ الأمر الذي جعل بعض الباحثين يميلون إلى اعتبار" كل رائد– في الفن والأدب– يحوي بذور الاغتراب في بنيانه الداخلي، وأيضا في كل عمل أدبي وفني لابد أن نعثر على الاغتراب[8]"؛ وهذا ما يجعلنا نقول أن هناك أعمالا أدبية كثيرة صورت الاغتراب؛ فقد صورت" الإلياذة والأوديسة" لهوميروس اغتراب الانسان وضعفه أمام قوى الطبيعة؛ وجسد" هاملت" لشكسبير الإنسان المغترب عن كل ما حوله، وفي الرواية نجد الشخصيات المغتربة عند بلزاك في" الكوميدية البشرية " ثم بعد ذلك في روايات ديكنز أوليفرتويست وعناقيد الغضب وفي البؤساء لفيكتور هيجو "[9]

أما عند العرب فلا أدل على هذه الظاهرة من الشعراء الصعاليك الذين أبو الانصياع لأوامر القبيلة، وفضلوا الانفصال؛ فنجد الشنفرى* مثلا في" لاميته" جسد الانفصال الحاد عن المجتمع القبلي، في مقابل عقده التوافق مع المجتمع الحيواني في قوله:

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيـــع وبيض أصليت وصفراء عيطل[10]

ضف إلى ذلك فالاغتراب لم يتوقف عند ظاهرة الشعراء الصعاليك بل نال حظا وافرًا من اهتمام الدارسين العرب سواءً الأدباء أو النقاد، وحتى العلماء والفقهاء، فكان له نصيب وافر من التحليل والتمحيص، ومن هؤلاء الدارسين من كانت له تجربة حياتية معيشة مع هذه الظاهرة، ومنهم من كانت وقفته وقفة دراسة وتحليل فقط[11]

وبهذا ندرك أن الاغتراب ظاهرة خطيرة خطورة أسبابها وانعكاساتها ذلك أن الأديب حين يجد نفسه في واقع مر وقاس لا روح فيه بسبب التحولات الحضارية المعقدة والأنظمة المتضاربة يصبح يحيا حياة الضياع والإحباط؛ والقلق والتوتر، واللا أمن، والانكسار وجميعها مظاهر برزت في كثير من الأعمال الروائية العربية، ومنها " الجزائرية" خاصة منها النسوية كروايات" فضيلة الفاروق"،" أحلام مستغانمي"،" مليكه مقدم"،" زهرة ديك"،" ربيعة مراح"،" عائشة بنور"،" سعيدة هوارة"،" وياسمينة صالح"؛ وليس المجال هنا باتساع للحديث عن تجليات هذه الظاهرة في جميع هذه الروايات بقدر ما هو الرغبة في الإطاحة بها في رواية" بحر الصمت" لياسمينة صالح، باعتبارها كاتبة جزائرية، والجزائر شأنها شأن المنطقة العربية عمومًا، شهدت ظروفا سياسية واجتماعية قاهرة، وقد كان لهذا المناخ دورًا فعالاً في تشكيل الشخصية الجزائرية اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا وفكريا، صدر عنها الكثير من الأعمال الأدبية، والروائية خصوصا، وقد كانت وعاءً لرصد الكثير من الظواهر متخذة البنى السردية المختلفة) من زمان ومكان وشخصيات(سبيلا لرصد هذه الأفكار، والظواهر؛ وإن كان هذا الرصد يختلف من كاتبة لأخرى.

تسعى هذه الدراسة إلى معاينة ظاهرة الاغتراب وألوانها ودوافعها للكشف عن سيمات الشخصية الاغترابية في رواية" بحر الصمت"، وما هي التقنيات التي وظفتها الكاتبة للتعبير عن هذه الظاهرة فنيا؟.

تعد ياسمينة صالح من أهم الكتاب الذين كتبوا في الحقل الروائي النسوي الجزائري وهي التي قال الأديب التونسي" حسن العرباوي" بأنها« اسم يبدأ الآن ولن ينتهي، لأنه ارتبط بالإبداع الجميل الذي يمضي هادئًا وثائرًا، إنها الدم الجزائري الجديد الذي لا يخشى من مواجهة الماضي والتاريخ معًا، وهي ببساطة بحر الصمت من النوع المميّز[12]»، وقد اخترنا روايتها" بحر الصمت" نموذجا للبحث في مأساة الواقع الجزائري، والتحولات التي مسته، والتي وفرت للمتخيل السردي مادة حكائية ناجحة ولكن ما لفت انتباهنا حقا في هذا العمل ليست الأحداث التاريخية ولا البنى السردية وإنما ظاهرة الاغتراب وتجلياتها في الرواية وقد برزت لنا ألوان عديدة من الاغتراب، كالاغتراب النفسي والمكاني، والاغتراب التاريخي.

وأول ما نبدأ به هو الاغتراب النفسي باعتباره من الأنواع التي أخذت حيّزًا كبيرًا من الرواية إلى جانب الاغتراب الأسري.

1- الاغتراب النفسي:

يحلم الإنسان دائما ببناء عالم خاص تملؤه علاقات المحبة، والود، والتسامح والحوار والتعاون، لكنه سرعان ما يصطدم بالواقع المشوه، وتبدأ أحلامه بالانكسار والتحطم، ليصبح هائما في دوامة من المشاعر المتضاربة، كالفقد، العزلة، والوحدة، وتبدأ رحلة اغترابه وانفصاله عن ذاته، وعن كل ما يحيط به، ومن ثم الشعور بعدم القدرة على التكيّف والتغيير والحلم؛ ليصبح الاغتراب رفيقه الدائم الذي لا يبرحه، فالاغتراب النفسي إذن ينشأ عن التناقض بين داخل الإنسان والعالم الخارجي كما قد« يتعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعره من غربة وفتور جفاء في علاقة بالآخرين[13]»، كما قد يعني« مجرد السرحان والشرود الذهني الناتج عن اهتمام الإنسان بأمور معينة، تبعده عن ذاته ويتيه بها عن نفسه كما قد يعني فقدان الحس أو غياب الوعي.[14]»

فالاغتراب النفسي عبارة عن جو نفسي مشوش، يبعد النفس عن واقعها، ويجعلها حائرة وتائهة، دائمة العزلة عن أقرب الأشياء إليها، وتجسد هذا اللون من الاغتراب في " شخصية سي السعيد" الذي برز في صورة السارد والشخصية الرئيسة في آن واحد؛ حياته مليئة وطافحة بالمشقات والأهوال منذ كان طفلاً، فمنها ما له صلة بالسلطة الأبوية الجائرة وجبروتها في كبت المشاعر وقهرها وقتل الحوار، ومنها ما له صلة بالمرأة التي طوع جسده للثورة لأجلها، لا لأجل الوطن، لكنها قابلته بالجفاء والاحتقار، ومنها ما له صلة بالأبناء خاصة ابنته التي بنت حاجزًا منيعًا يبقيها بعيدة عنه؛ ولم يستطع هو الرجل الأب كسر هذا الحاجز؛ لأنها ترى فيه الأب السلبي الذي كان سببًا في جميع مآسيها، وقد أرهقته جميع هذه العوامل ونالت منه، وهي دوافع كافية حتى يشعر بالاغتراب النفسي الذي قاده إلى اغتراب أعمق الاغتراب الأسري.

وقد تمثل شعور الاغتراب في علاقة" سي السعيد بابنته" القائمة على التباين الحاصل بينهما، في كيفية التعامل مع ظاهرة الحب، فابنته تريد حبًا مجسدًا ملموسا في الحنين والدفء، والمحبة، والكلام المتبادل بين أب وابنته، أما هو فيريد ابنته تكف عن

اللوم والعتاب وتفتح سبيل الحوار بينهما، كما يريد ابنة لا تحمله جميع المآسي التي لحقت بالعائلة من موت الأم والأخ.

ويحاول" سي السعيد" الخروج من وحدته، وكسر ذلك الحاجز المنيع باللجوء إلى تقنية المونولوج الداخلي، أو الحوار الباطني للتعبير عن حرمانه واغترابه النفسي؛ ذلك أن المونولوج يعني حسب" روبرت همفري" كلام الشخصية غير المسموع يقدمنا مباشرة إلى الحياة الداخلية لهذا الشخص وذلك من خلال الشروح والتعليقات[15]"، فالمونولوج الداخلي مرتبط بالحياة النفسية؛ فهو الكاشف عن نفسية الشخصيات وتفكيرها، فعن طريقه يتم البوح عما يختلج في النفس من هموم وآمال وانكسارات، إنه تكنيك يستخدم في القصص بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية[16]، وقد استخدمت الكاتبة هذا التكنيك للتعبير عن ظاهرة الاغتراب فنيا، فهي رواية طافحة بالمنولوج الداخلي؛ وكان ذلك عن طريق" سي السعيد" الذي يعتبر الشخصية المستولية على زمام النص فكثيرا ما كان ينصرف إلى الحديث النفسي للاستئناس وللإجابة عن كثير من الأسئلة التي ليست لها جوابا في الواقع الذي حوله، مؤكدًا بهذه الطريقة اغترابه وانفصاله.

" سي السعيد" لجأ إلى الحوار الباطني لأنه لا يستطيع الكلام ولا البوح لابنته بأسراره، لكنه يبوح بها لنفسه، وبطبيعة الحال لقارئه، وقد جاء الحوار الداخلي في صورتين(لحظة السرد الحاضر بفعل تصرفات ابنته ولا مبالاتها، أما الثانية فأتت بمثابة الومضة الو رائية التي كانت تعين السعيد على العودة إلى الماضي البعيد والقريب، ليسترجع حدثا أو عدة أحداث قديمة عاشها، ذلك لأنه الوحيد الذي يعرف كل الأسرار والأحداث التي مضت.

إن الحاجز المنيع بين" سي السعيد وابنته" جعله يلجأ إلى هذه التقنية" المونولوج الداخلي" لينطوي على نفسه، ويهرب إلى عالمه الخاص الذي يستطيع فيه الكلام مع نفسه ومع ابنته، مما يؤكد أنه كان يتكلم كلاما باطنيا ليثبت أكثر صمته ويؤكد وحدته وعزلته، لتصبح بذلك الذات تحاور نفسها بنفسها بعيدة عن الذوات الأخرى التي انفصلت عنها وأسكتتها، وقد أتعبته هذه الذوات وجعلته عاجزًا أمام إدانتها المستمرة، فكان المنولوج الداخلي سبيله لإفراغ ما يحتويه وعيه وما يصطرع بداخله من مكنونات وتعقيدات تؤكد اغترابه النفسي والأسري ومن أمثلة ذلك« أتساءل لو لم يكن الصمت بحرًا شاسعًا بيني وبينك؟ لو كنت قادرًا على الكلام، لو جئت إليّ لتقولي مثلا هيا تكلم، قل ما عندك يا أبي،

ماذا كان سيجري بي عندها؟ يخيّل إليّ أني سأجهش بالبكاء متذكرًا أن البكاء لن ينقذني من عينيك، ومن ذاكرتي التي يسكنها، كل من ترك ذكراه عندي الصمت هو الحكم العادل بيننا، يا ابنتي فهل تسمعين حدة وجعي داخل الصمت؟... إنها الطريقة الوحيدة كي أقول فيها الحقيقة عارية من التأويل والخداع ومن الكذب.[17]»

- قالت له على لسانه« أصبحت كهذا الخراب المفتوح على كل هذا الليل[18]»
- قال لها باعتراف هادئ: يا إلهي هل أنا سيّء إلى هذا الحد؟ آه يا ليتني كنت ترابا.
- قالت له: أتساءل كثيرا هل عاشت أمي سعيدة معك؟ هل أحببتها على الأقل[21]
- قال: أيتها الوقحة الشريرة تستحقين أن أضربك... أو تظنين أنك كبرت على أبيك[19]

لقد أسهمت هذه المقاطع الحوارية الباطنية الصامتة على بروز ظاهرة الاغتراب النفسي، لأن" سي السعيد" بدا عاجزًا عن الكلام المباشر بينه وبين ابنته، لذا أنجز لذاته مقاما داخليا مستخدما فيه الكلام الباطني على لسانه وعلى لسانها، فقد كان في مقاطع كثيرة من الرواية يروي بلسانه على ما ينطق لسانها من مشاعر وخلجات، كما يضيف في مقطع آخر داعيا إياها إلى كسر الحاجز بينهما، ولقهر اغترابه الذي طال به، وفك عقدته « يا ابنتي لماذا لا تغادرين صمتك، وترتمين بين أحضاني؟ آه أيتها الجزائرية العنيدة، كم أحبك، هيا افتحي عينيك جيدا وانظري إليّ دونما عتاب[20]»، يخاطب" سي السعيد" ابنته خطابا غير مسموع، دار بينه وبين نفسه، محاولا التعبير عن انكساراته المتوالية. ومؤكدًا انعدام الحوار بينهما، حيث تحول الاغتراب النفسي في هذا المقطع إلى اغتراب أسري تشوبه التوترات، والتمزقات وانعدام الحوار.

تفسح إذا رواية" بحر الصمت" المجال للاغتراب النفسي والأسري بالظهور عن طريق الشخصية الرئيسة" سي السعيد" الذي يسعى جاهدا إلى فتح الأبواب المغلقة التي جعلته يعيش حالة من الضياع والعدم يُؤرقه الماضي والحاضر على امتداد الصفحات، بسبب خيبة أمله في الظفر بقلب امرأة أشعرته بالخيانة الدائمة للوطن، الأمر الذي ولّد في نفسه يأسًا وكرهًا لكل من حوله لا سيما ولديه.

لهذا يفقد" سي السعيد" طعم الحياة، فهو من الداخل محطم الكيان ومشوه، يشعر بالوحدة القاتلة المميتة التي يحياها فعلاً معي(أنا وحيد، كنت وحيدًا، أنا صرت أخاف الوحدة، كنت أكتشف فضاعة الإحساس بالوحدة وأنت معي[21])، ومن هنا كانت الهاوية التي ألقت به في جب القلق والتمزق والضياع والحديث النفسي، وجدير بالذكر أن حالة

الانكسار والضياع لم تأت من فراغ، إنما أفرزتها عوامل عديدة ساعدت على ظهور الاغتراب النفسي الذي برز عن طريق" المونولوج الداخلي" الذي جعل" سي السعيد" يشرح أسباب اغترابه وأزمته النفسية والأسرية، لأنه يعيش على حافة اليأس والانكسار، والوحدة حتى بلغت به الرغبة في الموت« كنت مكسورًا حد الموت، بدأت أرفض الحياة وأطالب بحقي في الموت.[22]»

لقد تفجر اغتراب" سي السعيد" النفسي بعد أن كان عزلة ووحدة وصمت، أصبح رغبة في الموت والانتحار وهو تجلي من تجليات الاغتراب الشديدة، التي تأتي بعد فقدان الأمن والألفة، وبالتالي فقدان الأمل في كل شيء.

وتزداد الضغوطات النفسية على" سي السعيد" حتى أصبح شخصية غارقة في أحزانها ومنطوية على ذاتها تعيش ألمها بصمت رهيب، فكثيرًا ما كان يسأل نفسه عن نفسه المغتربة الفاقدة الهوية« من أنا بعد كل هذا العمر؟ من أنا بالضبط.. أنا لا شيء... أنا لا أحد غير هذه المسافة من الشعور[23]»، فما يمكن قوله عن هذه الشخصية أنها قدمت نفسها بصورة دقيقة عن طريق المنولوج الداخلي، الذي لعب دورًا هامًا في شرح أسباب أزمتها واغترابها النفسي والأسري.

إذا فهناك مناخات مأزومة وخفية أثرت على سي السعيد وبثت فيه الشعور بالاغتراب والتشتت والانفصال عن الذوات المحيطة به، خاصة ولديه ولا سيما" الرشيد" الذي كان بالنسبة له رمز القهر والمعاناة، لأنه يحمل اسم حبيب وخطيب زوجته، التي طوع جسده لأجلها لكنها كانت بالنسبة له صورة المرأة الخائنة« كانت وصية أحرقت أصابع أيامي، فلم أحملها... تركتها للفوضى... كان ابني ضغينتي الكبيرة... هل كان يكرهني؟ لم أسمعه يقول لي بابا، ولم أكن أشعر قط أني مجبر على التنازل لعاطفة أحرقتها الأحداث[24]» فقد ساعد هذا الاعتراف على توضيح الاغتراب الأسري وتعميقه في شخصية" سي السعيد" وما زاده عمقا هو شعوره بعقدة الذنب اتجاه موت ابنه، الذي كان يضن أنه السبب في موته مما أرّق حياته، فالتوازن النفسي الذي يبحث عنه سي السعيد لا يأتي إلا من خلال علاقة صحيحة مع البناء الأسري لذلك فإنه عندما تشرخ العلاقة بين الأفراد، وتتوقف على الانسجام، وتقطع أواصر الحوار يفقد الجميع ذلك التوازن ويدخلون عالم الاغتراب الذي يجعل الحياة مشتتة وباردة، وإلى جانب استخدام الكاتبة" ياسمينة صالح" لتقنية المونولوج الداخلي، للتعبير عن الاغتراب النفسي الأسري

لشخصياتها فقد لجأت إلى تقنية القناع، متخذة في ذلك السارد المذكر للتخفي خلفه والبوح ببعض الأشياء والمواضيع الحساسة التي قد لا تقبل من فوه امرأة، أو قد تعجز الذات الأنثوية على البوح بها، وهو ما عبر عنه" عبد الله الغذامي" عندما قال أن أحلام مستغانمي وجدت أن التحدث بلسان الرجل يسهل الكتابة ويساعد السرد، ويجعلها تقول ما تعجز عن قوله كأنثى[25] ذلك أن استعمال لغة المذكّر تمكنها من امتلاك زمام الأمور، والتعبير بحرية عما تريده بشكل أكثر وضوح، وهذا ما يجعلنا نقول أن الكاتبة ربما كانت تعيش نوعا من الرقابة والحصار النفسي، ما منعها من استخدام الضمير الأنثوي للبوح بمكبوتاتها، ولربما الهدف من استخدام هذا الضمير هو الرغبة في لفت الانتباه إلى أن صفة الصمت ليست لصيقة بالمرأة فحسب، بل قد يصمت الرجل عن الكلام لأسباب كثيرة، وهو ما برز في شخصية" سي السعيد" الذي ظل يخفي مشاعره المقهورة، وأحزانه، بين ضلوعه مفضلا الصمت عن قول الحقيقة لابنته التي كانت دائمة الإدانة له بالنظرة الثاقبة، والتجاهل المستمر، فالذات الأنثوية المبدعة اتخذت" سي السعيد" السارد المذكر قناعا تخفت خلفه وهو القائل« يطاردني الصمت والعمر يترنّح قبالتي يصيح في داخلي قل الحقيقة يا سي السعيد ودع القناع يسقط[26]» وهو ما يؤكد أن الاغتراب بلغ ذروته حين أفصح عن مكامنه المتوارية خلف هذا القناع الذي لا بد له أن ينكسر ويسقط، أين تنازل في نهاية الرواية وأخبرها بحكايته مع أمها بعد صراع مرير مع ذاته المغتربة، ليطفوا بعض الأمل في داخله حينما أحسّت ابنته بوجعه وقامت بمواساته.

2- الاغتراب المكاني:

يشكل المكان أحد العناصر الحكائية الهامة التي يقوم عليها البناء السردي وقد أولى الدارسون هذا العنصر عناية فائقة، وصنفوه بمستويات عديدة، وفق أثره ومقدار سطوته على نفسية الشخصية الروائية، لهذا فلا نبتغي دراسة المكان من الناحية الهندسية بقدر ما يهمنا تحوله« إلى مجموعة من القيم والعلاقات الوجدانية بين الشخصيات والفضاء الذي تتحرّك وتتفاعل معه برؤية معيّنة وموقف معيّن[27]»، مما ينجر عنه تشابك العلاقات مع هذه الشخصيات والتي قد تتخذ صفة المكان الأليف أو المعادي والذي يتخذ بدوره صفة المجتمع الأبوي بهرمية السلطة في داخله وعنفه الموجه لكل من يخالف التعليمات، وتعسّفه الذي يبدو ذو طابع قدري[28].«

ولعل المكان المعادي الذي برز في رواية" بحر الصمت" هو" البيت" الذي أضحى مشوها وفاقدًا للألفة، بل أضحى دالا على اغتراب ساكنيه، لأن البيت امتداد للإنسان« فكل الصور البسطة العظيمة تكشف عن حالة نفسية، والبيت أكثر من منظر طبيعي إذ هو حالة نفسية، وهو كذلك حتى لو رأينا صورة له من الخارج[29]»، فالمكان المعادي هنا هو المكان الاغترابي الذي يكشف أثر البيت في التكوين النفسي للشخصية وهو ما لمسناه فيما ورد عن لسان" سي السعيد" الذي تحول البيت بالنسبة له إلى فراغ وصمت« أنظر حولي كمن لا يعرف المكان... يجلدني البرد ويجلدني الصمت والفراغ[30]»، فهذا البيت بدا غريبا عنه، يثير في نفسه الإحساس بالغربة لأنه افتقد فيه الحب الذي حلم به مع زوجته، وأبنائه ولكنه لم يظفر به كما تنفتح رواية" بحر الصمت" بالمكان" البيت" الذي بدا موحشا تغمره الوحدة القاتلة، بسبب انكسار جسور التواصل بين الأب وأبنائه مما ينم عن وجود حالة اغتراب مكاني، بدت واضحة بتلك الصورة الكئيبة والموحشة التي رسمتها الكاتبة عن" البيت" كفضاء حميمي ودافئ« كان البيت موحشا، لم تكن الأضواء كافية لتعيد له دفئه[31]» فحتى الأضواء لم تساعد على كسر الوحشة والظلمة في هذا المكان، فأصبح بذلك الفراغ والصمت، والوحدة الموحشة من مظاهر تأثيث " البيت"، وحتى الغرفة لم تكن أحسن حالا منه« أضغط على زر النور فتفرق الغرفة في ضوء شاحب... حتى ضوء الموت لا يتغير[32]»

فقد" البيت" للدفء والحميمة خلاف المعنى الذي أكده" غاستون باشلار" وغيره من الدارسين بالنسبة لهذا المكان الذي أصبح في الرواية مكانًا اغترابيًا، طاردًا للأحلام والألفة، وإسقاطا نفسيا لمشاعر الضيق والعزلة والوحدة، ودالا رمزيا على العدائية والنفور بين" سي السعيد وأبناءه"، فمن البيت الطفو لي الذي كان منعدما تماما لأدنى مشاعر الاطمئنان والاستقرار بسبب السلطة الأبوية القاهرة التي حرمته من أبسط حقوقه، وهو بذلك قد افتقد لمعنى التجذر الطبيعي الذي يقوم على الألفة والاستقرار مما جعل البيت يتحول إلى اللابيت الذي تنمحي معه المشاعر الحقيقية لتحل محلها مشاعر النفور، فحالة الانفصال والكره التي تعيشها الشخصية في المكان، انعكست بوضوح على نفسيتها وحولتها إلى نفسية محطمة.

لقد نأت الكاتبة عن استعمال عنصر الوصف الحيوي، واستعملت بدلا منه الوصف الصامت الجاف الذي كان رمزا دالا على حالة الاغتراب المكاني؛ كما تجاوزت

ذلك الوصف الطبوغرافي الدقيق" للبيت" على الرغم من أنه كان مسرحا للكثير من الأحداث والمشاهد إلا أننا لم نجد ذكرا لها سوى بعض الملفوظات(النافذة، السرير، الغرفة، الطاولة) وهي ملفوظات نحسبها قليلة مقارنة بالنظام النفسي الذي بدا وكأنه الديكور الحقيقي" للبيت"، فالكاتبة تبنت لنفسها طريقة لوصف هذا المكان امتزجت فيها الصورة النفسية مع هندسة المكان للكشف عن حالة الاغتراب المكاني والأسري الذي بدا طافحا في الرواية.

فقد تحول" البيت" في رواية" بحر الصمت" إلى مكان معادي بعيد كل البعد عن الألفة والحب والدفء، إنه يعني الاغتراب في أبشع صوره، ذلك أنه لم يحمي" سي السعيد" من مشاعر الخوف والقلق، ومن عريه وانمحائه.

3- مظاهر الشخصية المغتربة:

مما سبق يتضح أن الشخصية كان لها علاقة وطيدة بالاغتراب النفسي والأسري والمكاني، باعتبارها العنصر الحيوي والفعال في كل بنية سردية؛ لهذا فقد اتخذت شخصية " سي السعيد" مظاهر عديدة جعلتنا نقول أنها شخصيته مغتربة ومن هذه المظاهر:

اللاجدوى« وجدت نفسي داخل لا جدوى الحياة، أنا الذي انتظر العمر كله بلا جدوى... الحياة بلا جدوى[33]» ومن المظاهر أيضا الوحدة، والصمت، والضياع، واللاشيء:« الصمت هو الحكم العادل بيننا يا ابنتي...، يا ابنتي لماذا لا تغادرين صمتك، غمرني إحساس فضيع بالضياع، أفتح عيني على عالم موحش. ليس فيه غير أب صارم ووحيد، وحدتي وفراغي... أنا وحيد... أنا لا شيء... من أنا بعد هذا العمر.[34]»...

ومن المظاهر الاغترابية الرغبة في الموت:« كنت مكسورا أجد الموت بدأت أرفض الحياة وأطالب بحقي في الموت...، كنت رجلا ميّتا[35]»... هذه أبرز المظاهر الاغترابية التي اتصف بها" سي السعيد" وهناك مظاهر أخرى كالخوف من الليل والمستقبل، التيه، الإحساس بالذنب، السخرية، الإحساس بسلبية الزمان والمكان، إلى درجة أن أصبح رقما من الأرقام« كنت رقما بسيطا في معادلة معقّدة...، كنت رقما غامضا وسط مجموعة من الأرقام[36] » مما يدل على أنه كلما زاد الاغتراب النفسي كلما قلّت درجة الرغبة في الحياة ليصبح الانسان شيئا من الأشياء التي لا قيمة لها.

خـــــاتمة:

إن رواية" بحر الصمت" هي حقا بحر للكثير من المواضيع والقضايا كالاغتراب الذي بدا واضحا حيث ظهرت تجلياته بصور وأشكال مختلفة عانت منها الشخصية الرئيسة التي بدت مستولية على زمام النص، ومن هذه التجليات الاغتراب النفسي الذي أدى بالشخصية إلى التقوقع والانشطار، والانهيار، بتأثير أسباب كثيرة ماضية وحاضرة مما يؤكد أن التوازن النفسي بالنسبة لها كان مشوها ومشوشا، حيث فقدت فيه الشخصية مقومات الحب، والدفء، والإحساس بالوجود وخاصة الحوار الذي انعدم تماما في الرواية مما جعل" تقنية المونولوج الداخلي، والقناع، والوصف الباهت للمكان" تأخذ حيّزا كبيرا في الرواية بدلا من التقنيات الأخرى؛ ومفاد كل هذا أن هناك ذات زائفة وخائفة في آن واحد متوارية خلف الذات الحقيقية في رواية" بحر الصمت."

الهوامش:

1 يونسي كريمة: الاغتراب النفسي وعلاقته بالتكيف الأكاديمي لدى طلاب الجامعة، 2012، ص 22.

2 د/ حسن عليان: الاغتراب والمقاومة في الرواية العربية في فلسطين والأردن، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، 2005، دط، ص 11.

3 حماد حسن محمد حسن: الاغتراب عند إيريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، دط، ص 142.

4 رجب محمود: الاغتراب سيرة ومصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1993، ص 06.

5 أميرة علي الزهاني: الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص 28.

6 ريتشارد شاخت: الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسن، المؤسسة العربية للدراسات، 1980، ص 105، ص 107.

7 المرجع نفسه: ص45، 46.

8 إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي ورواية" المسخ نموذجا" عالم الفكر، ع2، مج15، يوليو 1984، ص 85.

9 د/ مريم جبر فريحات: الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني، مجلة جامعة دمشق، مج26، ع3+ 4، 2010، ص 191.

(*) ليس الشنفرى فحسب بل هناك المتنبي، المعري، البحتري، **وغيرهم كثير**.

10 يوسف شكري فرحات: شرح ديوان الصعاليك، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 38.

11 العبد الله: الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، الأردن، 2005، ط1، ص 21.

12 ليندة مسالي: إشكالية المتخيل السردي في الرواية النسوية ياسمينة صالح أنموذجا، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري– تيزي وزو– دار الأمل للنشر والتوزيع، العدد الرابع، جانفي 2009، ص 114.

13 رجب محمود: الاغتراب سيرة ومصطلح، ص 35.

14 المرجع نفسه: ص 35، 36.

15 انظر روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ت محمود الربيعي، مكتبة الشباب، القاهرة، 1984، دط، ص 59.

16 ينظر المرجع نفسه: ص 59، 62.

17 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 68.

18 المصدر نفسه: ص 73.

19 المصدر نفسه: ص 75.

20 المصدر نفسه: ص 40.

21 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 6، 7، 83، 109، 111، 114.

22 المصدر نفسه: ص 99، 104.

23 المصدر نفسه: ص 5، 6.

24 المصدر نفسه: ص 114.

25 عبد الله الغدامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1996، ط، ص 172.

26 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 114.

27 ريم العيساوي: المكان ودلالته في الرواية النسوية المغاربية، مجلة الرائد الشهرية، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ع8، يوليو، 2002، ص 28.

28 غالب هلسا: المكان في الرواية العربية، فصل من كتاب الرواية واقع وآفاق، بيروت، دار ابن رشيد، 1981، ص 226.

29 غاستون بشلار: جماليات المكان، ت غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984، ص 86.

30 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 101.

31 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 99.

32 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 100.

33 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 27، 106.

34 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 07، 31، 40، 41، 44.

35 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 99، 104، 105.

36 ياسمينة صالح: بحر الصمت، ص 55، 75.